مجلّة الذخيرة للبحوث والدراسات الإسلامية / المجلد 6 - العدد 2 (ديسمبر2022م) [243-266]
قسم العلوم الإسلامية / جامعة غرداية / الجزائر
E-ISSN : 2588-1728 / P-ISSN : 2602-7518
http://eddakhira.univ-ghardaia.dz

أساليب قرآنية بليغة تشتبه على العوام

Qur'anic Rhetorical Methods that Confuse Common People

ط.د. عبد الرحمن بن عبد الله حسن العلي
Abdulrahman bin Abdulla Hassan Al-Ali
جامعة قطر (قطر)
aa1903283@qu.edu.qa

تاريخ الإرسال: 2022/09/17 تاريخ القبول: 2022/09/28

ملخص

يتناول هذا البحث عدَّة شبهاتٍ تطرأ على أذهان العوام -من العرب وغيرهم- عند قراءتهم لبعض الأساليب البليغة التي جاءت في القرآن الكريم، فيهدف لإيضاح هذه الأساليب وإزالة اللبس عنها وإبراز الجانب الجمالي لها بذكر بعض النُّكت البلاغية المتعلقة بها، وقد اتَّبع الباحث في بحثه هذا المنهج الاستقرائي والمقارن، وقد تضمَّن البحث عدَّة شُبَه: شبهة توهُّم التشريك من ضمير الجمع العائد على الله عز وجل، وشبهة توهم الانقطاع وعدم الاستمرارية من صيغة الفعل الماضي في بعض المواضع، وشبهة توهم التناقض لاختلاف الأصناف الذين استُعمل لهم اسم التفضيل (أظلم)، وشبهة تنوع الصِيَغ بالإفراد والتثنية والجمع لآياتٍ تضمنت ذكر ربوبية الله للمشرق والمغرب، ومن أبرز النتائج التي تم التوصل إليها: أنَّ جميع ضمائر الجمع العائدة على الله عز وجل يُراد بها التعظيم، وأن الفعل الماضي يأتي ليُفيد التحقيق في مواضع، وأنَّ الأظلميَّة في اسم التفضيل في الآيات الخمس عشر نسبيَّة، وأنه لا تنافي بين الإفراد والتثنية والجمع في الآيات المتضمنة ربوبية الله تعالى للمشرق والمغرب؛ فكلُّ واحدةٍ منهنَّ لها وجه اختصاص بالموضع التي أتت فيه، واختصاص كل واحدةٍ منهنَّ بموضعها له دلالات في بلاغة القرآن الكريم.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، أساليب، بلاغة، شُبه، العوام.

Abstract

This research deals with several doubts that arise in the minds of the common people – both Arabs and others – when they read some of the Quranic rhetoric.

This paper aims to clarify this rhetoric, remove doubts and highlight its aesthetic aspect by mentioning some rhetorical outlook related to it. The researcher has followed inductive and comparative approach in this paper. The research includes doubts such as usage of plural pronoun for Allah the almighty which implies the illusion of polytheism, and the past tense form which implies cease and discontinuity (of a particular action), and the usage of the Arabic elative "أظلم" on different kinds of people which leads to wrongly think of contradiction. The paper also includes different forms of singular, dual and plural in verses mentioning Allah's lordship of the East and the West. Among the significant results concluded in this research are: 1) The plural pronoun used for Allah the Almighty is for glorification. 2) The past tense may be used for certainty, not for interruption (of an action). 3) The Arabic elative "أظلم" is relative in each case in the fifteen verses. 4) There is no contradiction between singular, dual, and plural in the verses that mention God Almighty's lordship of the East and the West. Each of the above has a specific implication related to the context in which it has been used which are examples of beautiful Qur'anic Rhetoric.

Keywords: The Noble Qur'an, methods, rhetoric, doubts, common people.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً. وبعد،

فإن القرآن الكريم أُنزل بلسانٍ عربي مُبين، وقد كانت العرب حينما نزل عليها القرآن لا تتوهم من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: 1] التشريك، فلا تتوهم من ضمير الجمع المنفصل (إنا) ولا من ضمير الجمع المتصل (نا) في ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ أن يكون المتكلم جماعةً، بل قد يلمس بعضهم الجانب البلاغي الموجب لاستخدام هذا الأسلوب دون غيره فيزداد يقيناً بصدقه.

ولكن بعد أن دخلت العُجمة وصار جلُّ كلام الناس بالعاميَّة؛ قلَّ استعمال كثيرٍ من الأساليب التي كانت تُستخدم في الكلام العربي، فصار العاميُّ لا يمرُّ على هذه الأساليب إلا في أثناء تلاوته للقرآن الكريم أو استماعه له، ومن ثَمَّ تطرأ عنده الإشكالات المختلفة، أما العوام في القرون الماضية فقد كانوا أكثر درايةً بهذه الأساليب من اللاحقين لاستعمالهم لها في حياتهم اليومية، وبناءً على ذلك كانت استشكالاتهم فيها أقل، وأما عوام عصرنا فيكفي لإدراك حيرتهم من هذه الأساليب النظرُ إلى الأسئلة التي تَرِدُ على بعض المواقع الإلكترونية التي تُعنى بالإفتاء، وهناك يجد الناظر كثرة استشكالاتهم في هذا الجانب، وما ذاك إلا لاتساع الفجوة بين عوام عصرنا وبين لغتهم العربية، فجاء هذا البحث الصغير ليتناول بعضاً من هذه الأساليب لإيضاحها وإزالة اللبس عنها، فإن الحاجة لهذا لا تقتصر على إزالة اللبس الذي يحصل للقارئ العامي، بل إنها تمتد لرد شبهات المشبِّهين من الفِرَق التي تنتسب إلى الإسلام، وتمتد لأبعد من ذلك لتتناول شبه النصارى واليهود والملحدين حول كلام الله عز وجل، فكما أن الجهل بأساليب اللغة العربية قد يوقع الإنسان في الحيرة واللبس، فإنه قد يوقع في الضلال أيضاً، كما صرَّح بذلك أبو عمرو بن العلاء لعمرو بن عُبيد بقوله له: "من العُجمة أُتيت"[1]، ناهيك عن استغلال المُغرضين جهل الناس بالعربية لإضلالهم، فتعلُّمُ هذه الأساليب اللُّغوية والدراية بها من الأهمية بمكان في رد كثيرٍ من الشُّبَه.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في معالجة بعض الشُّبه التي قد تُلامس أذهان العامَّة حول أعظم كتاب وهو القرآن الكريم، والتي تحول بينهم وبين تدبُّره والوقوف على عجائبه وروعته وجماله، وهذه الشُّبه -من ناحية أخرى- باتت منافذ يدخل من خلالها المُغرضون ليُشغِّبوا على أهل الإسلام مستغلِّين عدم إلمام العامَّة منهم بأساليب اللغة العربية.

1 البغوي: أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخَران، 267/2.

مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث في سؤال محوري: ما هي أبرز الشُّبه التي تُلامس أذهان العامَّة عند قراءتهم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، وما الجواب عنها، وما الجمال البلاغيّ المستتر خلف هذه الأساليب التي أشكلت؟

أسباب اختيار الموضوع:

1. انتشار الشُّبه التي تُثار حول القرآن الكريم والتي زادت في الآونة الأخيرة وباتت تصلُ بشكل مخيف إلى صغار الناس وكبارهم.

2. إرادة كشف الالتباس الحاصل عند العوام انطلاقاً من واجب التبيين لهم وإزالة كل ما يحول بينهم وبين فهم كلام ربِّهم.

أهداف البحث:

1. تقريب بعض أساليب القرآن للعوام ليسهل عليهم فهمه على الوجه الصحيح.

2. الرد على شُبَه أثيرت من نصارى وزنادقة وفِرَق تنتسب إلى الإسلام مستغلَّةً جهل العوام بأساليب القرآن الكريم.

3. إبراز شيء من النكت البلاغية من وراء بعض هذه الأساليب ليلمس العامي جمالها وروعتها ويزداد يقينه بالقرآن الكريم.

منهج البحث:

اتبعتُ في هذه الدراسة المنهج الاستقرائي والمقارن.

هيكل البحث:

جاءت خطة البحث على النحو التالي:

مقدمة ومبحثان وخاتمة والمراجع.

المقدمة: وقد تضمنت أهمية البحث، ومشكلته، وأسبابه، وأهدافه، ومنهجه، وهيكل البحث.

المبحث الأول: ما يُتوهم منه النقص لله جل وعلا

المطلب الأول: توهم التشريك من ضمير الجمع.

- ضمير الجمع لله عزَّ وجل.
- توهم إثبات خالقين مع الله سبحانه من قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحسَنُ الخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14].

المطلب الثاني: توهم الانقطاع وعدم الاستمرارية من الفعل الماضي.

المبحث الثاني: ما يُتوهم منه التناقض

المطلب الأول: تعدُّد الصفات التي استُخدم معها اسم التفضيل (أظلم).

المطلب الثاني: مجيء آيات تضمنت ذكر ربوبية الله للمشرق والمغرب تارة بالإفراد وتارة بالتثنية وتارة بالجمع.

الخاتمة: وتشتمل على أبرز نتائج البحث والتوصيات.

فهرس المراجع.

المبحث الأول: ما يُتوهم منه النقص لله جل وعلا

المطلب الأول: توهم التشريك من ضمير الجمع

الفرع الأول: ضمير الجمع لله عزَّ وجل

أما الأول فالآيات في هذا الباب كثيرة جداً، منها على سبيل المثال:

- قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعطَينَاكَ الكَوثَرَ﴾ [الكوثر: 1].
- وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقنَا الإِنسَانَ﴾ [الإنسان: 2].
- وقوله: ﴿إِنَّا نَحنُ نُحيِي وَنُمِيتُ وَإِلَينَا المَصِيرُ﴾ [ق: 43].

فهذه الآيات وأشباهها قد يتوهم منها من قلَّ نصيبه من اللغة العربية بتعدد الآلهة[1]، وقد يكون سبب الاشتباه عند عوام المسلمين تشغيب النصارى مثلاً -كما

1 جاء في سؤال على موقع إسلام ويب: "هناك أخ مسلم غير عربي سألني هذا السؤال: لماذا يستخدم الله سبحانه وتعالى ضمير "نحن" في القرآن عندما يتحدث عن نفسه، فهل من جواب

سيأتي- فينقدح بسببهم الاشتباه واللبس، وجواب هذا أنَّ الأسلوب العربي يُجَوِّز استعمال صيغة الجمع للمفرد وذلك للتعظيم، والقاعدة المفيدة في هذا أنَّ "كل ضمائر الجمع المنسوبة إلى الله تعالى المراد بها التعظيم"[1]، بخلاف التثنية فإنها تدل على العدد المحصور[2].

ووقد أورد هذا الإشكال شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة التدمرية، واحتوى كلامه على نفائس.

منها: ذكره من يثير هذه الشبهة وهم النصارى، وذلك ليستدلوا على تعدد الآلهة، وأشار في الجواب بأنَّ غاية ما يدل عليه ضمير الجمع أحد أمرين: أن يدل على شركاء، أو يكون للتعظيم، فإذا رجعنا إلى المُحكم وجدنا ما ينفي وجود الشركاء، فدلَّ على أن الضمير للتعظيم، ومثَّل لهذا بقوله: "فإذا تمسَّك النصراني بقوله: ﴿إِنَّا نَحنُ نَزَّلنَا الذِّكرَ﴾ [الحجر: 9] ونحوه على تعدد الآلهة، كان المُحكم كقوله: ﴿وَإِلَٰهُكُم إِلَٰه وَاحِد لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163]"[3].

ومن الفوائد التي تضمنها كلامه على هذا الأسلوب: تعليل كون ضمير الجمع مستخدماً للتعظيم للمفرد، فتضمن كلامه الإشارة إلى تعليلين:

الأول: أن إطلاق ضمير الجمع للتعظيم إنما استحقه الذي أُشير إليه بذلك لتعدُّد صفاته العظيمة التي تستحق كل صفة منها أن تقوم مقام واحد.

والثاني: أن يكون للذي أُطلق عليه ضمير الجمع أعوانٌ تابعون له -لا شركاء-؛ فبذلك استحق ضمير الجمع.

شافٍ...؟". (رقم الفتوى: 103219) بتاريخ: 27 ذو الحجة 1428هـ - 5-1-2008، الرابط: https://www.islamweb.net/ar/fatwa/103219 - تمت زيارة الصفحة بتاريخ: 2022/9/23.

1 ابن عثيمين، تفسير سورة الكهف، ص٢٦؛ وينظر: الشنقيطي، العذب النمير، 227/2.

2 ينظر: ابن تيمية، العقيدة التدمرية، تحقيق: د. محمد بن عودة، ص75.

3 ابن تيمية، العقيدة التدمرية، ص109.

وهذا التعليل الثاني طبَّقه د. فاضل السامرائي على آية ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: 18] حيث قال: "والإسناد إلى ضمير الجمع هنا له دلالة إضافة إلى التعظيم الذي يفيده ضمير الجمع؛ ذلك أن القارئ هو جبريل وليس الله[1]...، وكذلك المبيِّن في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: 19]؛ فالذي يُبيِّن للرسول ويوضح هو المَلَك[2]، فهو يقرأ بأمر الله ويُبيِّن بأمر الله؛ فالأمر مشترك، الله يأمر والملك يبلِّغ؛ ولذا عبر بأسلوب الجمع، والله أعلم"[3].

ومن النُّكت البلاغية المستفادة من ضمير الجمع في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: 1]: أنَّ إسناد الإعطاء إلى ضمير العظمة يفيد عدم استطاعة أحد انتزاع هذا العطاء منه صلى الله عليه وسلم[4]، وأرى أيضاً أنه قد يستفاد منه تفخيم العطاء؛ إذ إن العطاء من العظيم ليس كالعطاء من غيره، والله أعلم.

وقد ذكر الدكتور فاضل السامرائي أنه حيثما ذُكر ضمير التعظيم في القرآن الكريم لله سبحانه إلا وقد جاء قبله أو بعده ما يدلُّ على وحدانية الله سبحانه، وأمثل على ذلك بالآيات التي أوردتها في بداية هذا المطلب:

---

1 جاء في التفسير الوسيط للواحدي (393/4): "﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ [القيامة: 18] قال ابن عباس: فإذا قرأه جبريل"، وقال مقاتل: "يقول: فإذا تلوناه عليك، يقول: إذا تلا عليك جبريل". تفسير مقاتل بن سليمان (512/4).

2 جاء في تفسير الطبري (643/10): "عن أُبَيٍّ: لما أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199] قال النبي صلى الله عليه وسلم: ما هذا يا جبريل؟ قال: إن الله يأمرك أن تعفوَ عمن ظلمك، وتُعطيَ من حرمك، وتصلَ من قطعك". قال ابن كثير عن هذه الرواية في تفسيره (480/3): "وهذا مرسل على كل حال، وقد رُوي له شواهد من وجوه أُخَر"؛ وقال الزمخشري في الكشَّاف (661/4): "﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: 19] إذا أشكلَ عليك شيءٌ من معانيه، كأنه كان يعجل في الحفظ والسؤال عن المعنى جميعاً، كما ترى بعض الحراص على العلم".

3 السامرَّائي، لمسات بيانية، ص214.

4 ينظر: السامرَّائي، على طريق التفسير البياني، 100/1.

- قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: 1] جاء بعده مباشرةً: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: 2].

- قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقنَا الإِنسَانَ﴾ [الإنسان: 2] جاء بعده ببضع آيات: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان:6]

- قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحنُ نُحيِي وَنُمِيتُ وَإِلَينَا المَصِيرُ﴾ [ق: 43] جاء قبله ببضع آيات: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: 39].

فليس هناك موطن في القرآن الكريم ذُكر فيه ضمير العظمة إلا وجاء قبله أو بعده ما يدل على وحدانية الله سبحانه، والله أعلم.

الفرع الثاني: توهم إثبات خالقين مع الله سبحانه من قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحسَنُ الخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14].

قد يُتوهم بعض العوام من هذه الآية أن فيها دلالة إثبات خالقين مع الله سبحانه[1]، فكيف يكون هذا والله سبحانه أخبر عن نفسه انفراده بالخلق فقال: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ﴾ [الرعد: 16]؟ وممن استغلَّ هذه الشبهة لترويج باطله: المعتزلة، حيث قال الرازي عنهم: "المعتزلة احتجوا بهذه الآية على كون العبد خالقاً لأفعال نفسه، فقالوا: لو لم يكن غير الله خالقاً لما جاز وصف الله بأنه أحسن الخالقين"[2].

والجواب على ذلك من عدة أوجه:

الوجه الأول: أنَّ الخلق نوعان؛ إما إيجاد من العدم -وهذا خاص بالله عزَّ وجل-، وإما تحويل من مادة إلى أخرى، وهذا ممكن للبشر حسبما حباهم الله من العلم والقدرة على أداء ذلك، فإيجاد ذوات الأشياء مستحيل على الناس، وأما التغيير

1 طرح أحدهم سؤالاً في موقع إسلام ويب نصُّه: "يقول عز وجل في سورة المؤمنون: (فتبارك الله أحسن الخالقين) فهل يعني هذا أن هناك إلهاً آخر؟". (رقم الفتوى: 6859)، بتاريخ: 6 ذو القعدة 1421هـ - 30-1-2001، تمت زيارة الصفحة بتاريخ: 2022/9/23 من خلال الرابط: https://www.islamweb.net/ar/fatwa/6859

2 الرازي، التفسير الكبير، 354/26.

والتحويل لهذه الذوات فهو ممكن لهم، كما يصنع النجار من الخشبة باباً، أما أن يخلق خشباً فهذا مستحيل[1]، وقال القرطبي في تفسيره: "ولا تنفى اللفظة عن البشر في معنى الصنع، وإنما هي منفية بمعنى الاختراع والإيجاد من العدم"[2]، فيندرج تحت لفظ الخلق بمعنى الصنع كل الاختراعات والصناعات الحديثة، فمثلاً: لا يقال للرجل الآلي الحديث أنه خَلْقُ إيجادٍ من الإنسان[3]، وإلى هذا القول ذهب الطبري، حيث رجح أن خلق بمعنى صنع، ونسب هذا القول لمجاهد، واستدل على ذلك بأن العرب كانت تسمي الصانع خالقاً، ثم ذكر بيتاً لزُهير بن أبي سُلمى يقول فيه:

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْ ** ضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لا يَفْرِي[4]

وأما الشوكاني فذكر أن الخلق في اللغة يأتي بمعنى التقدير، "يقال خلقت الأديم إذا قسته لتقطع منه شيئاً، فمعنى ﴿أَحسَنُ الخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14]: أتقن الصانعين المقدِّرين"[5].

وأرى أن ما ذهب إليه الطبري والشوكاني يندرج تحت الوجه الأول؛ لأن التحويل من شيء إلى شيء يسمى صناعة، ويتضمن ذلك التقدير.

الوجه الثاني: باعتبار إطلاق فعل "الخلق" على عيسى عليه السلام، ففي هذا ذكر البغوي قول ابن جريج: "إنما جمع الخالقين لأن عيسى كان يخلق كما قال: ﴿أَنِّي أَخلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ﴾ [آل عمران: 49]، فأخبر الله عن نفسه بأنه أحسن الخالقين"[6]، والخلق الذي من عيسى عليه السلام بإقدار الله وإذنه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذ تَخلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيرِ بِإِذنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيرَاً بِإِذنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

1 ينظر: ابن عثيمين، تفسير سورة لقمان، ص154.

2 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، 110/12.

3 ينظر: ابن عثيمين، تفسير سورة الفاتحة، ص٣٧.

4 ينظر: الطبري، جامع البيان، 25/17؛ قال ابن منظور في لسان العرب 153/15: "وقول زُهير... مَعْنَاهُ تُنَفِّذُ مَا تَعْزِم عَلَيْهِ وتُقَدِّرُه، وَهُوَ مَثَلٌ".

5 الشوكاني، فتح القدير، 565/3.

6 البغوي، معالم التنزيل، 412/5.

الوجه الثالث: أن يكون على سبيل الفرض، حيث قال الرازي مجيباً عن مثل هذه الشبهة في آية ﴿وَاللَّهُ خَيرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١]: "هو من قبيل ﴿أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: 45] و﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14]، والمعنى: إن أمكن وجود الرازقين فهو خير الرازقين"[1].

فيتلخص لنا أن الجواب كالتالي: الخلق نوعان؛ فالذي بمعنى الإيجاد من العدم مستحيل على المخلوقين، وأما الذي بمعنى التحويل فهو ممكن لهم، فإذا نُسِب للمخلوقين فهو بمعنى الصنع والتقدير، وقد يقال كذلك أنه جمع الخالقين لأن عيسى عليه السلام كان يخلق من الطين طيراً بإذن الله، وقد يقال إنه بمعنى الفرض، أي إن أمكن وجود الخالقين فهو أحسنهم.

المطلب الثاني: توهم الانقطاع وعدم الاستمرارية من الفعل الماضي

قد أتى هذا الأسلوب في آيات كثيرة جداً؛ منها:

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ [النساء: 17].

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦].

وقد عقد ابن قتيبة في كتابه تأويل مشكل القرآن باباً أطلق عليه: "باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه"، وذكر فيه أنواعاً كثيرة منها: "أن يأتي الفعل على بنية الماضي وهو دائم، أو مستقبل"[2]، ثم ذكر بضع آيات من هذا النوع، وختمه بقوله: "في أشباهٍ لهذا كثيرة في القرآن"[3].

وإذا أتينا لنسلط الضوء على كلمة تتكرر كثيراً في هذا الأسلوب، وهي الفعل الناقص (كان)، نجد محيي الدين درويش رحمه الله يذكر أن "كان" تأتي في القرآن على خمسة أوجه:

1 الرازي، التفسير الكبير، 544/30.

2 ابن قتيبة، تأويل مُشكل القرآن، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ص180.

3 المصدر السابق.

الأول: بمعنى الأزل والأبد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيماً﴾ [النساء: 17].

الثاني: بمعنى المضي المنقطع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي المَدِينَةِ تِسعَةُ رَهط﴾ [النمل: 48].

الثالث: بمعنى الحال، ومنه قوله تعالى: ﴿كُنتُم خَيرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: 110].

الرابع: بمعنى الاستقبال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوماً كَانَ شَرُّهُ مُستَطِيراً﴾ [الإنسان: 7].

الخامس: بمعنى صار، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 34][1].

والأصل في (كان) عند الأكثرين من هذه الأوجه الخمسة هو الوجه الثاني -معنى المضي المنقطع-، حيث قال السيوطي: "تختص (كان) بمرادفة (لم يزل) كثيراً، أي أنها تأتي دالةً على الدوام، وإن كان الأصل فيها أن يدل على حصول ما دخلت عليه فيما مضى مع انقطاعه عند قوم وعليه الأكثر -كما قال أبو حيان- أو سكوتها عن الانقطاع وعدمه عند آخرين -وجزم به ابن مالك-، ومن الدالّة على الدوام: الواردة في صفات الله تعالى نحو ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ [النساء: 134]، أي: لم يزل متصفاً بذلك"[2].

وأكثر ما يُشكل على العوام -فيما أرى- من الأوجه الخمسة آنفة الذكر: الوجه الأول والرابع، فيرجعونهما إلى الوجه الثاني، ومما يدلُّ على ذلك ما رواه البخاري في صحيحه عن سعيد بن جبير أنه قال: قال رجلٌ لابْنِ عَبَّاس: "إِنِّي أَجِدُ فِي القُرْآنِ أَشْيَاءَ تَخْتَلِفُ عَلَيَّ" وذكر مسائل، منها: "... وَقَالَ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيمًا﴾ [النساء: 96]، ﴿عَزِيزًا حَكِيماً﴾ [النساء: 56]، ﴿سَمِيعاً بَصِيراً﴾ [النساء: 58]، فَكَأَنَّهُ كَانَ ثُمَّ مَضَى؟"، فأجاب ابن عباس رضي الله عنهما عن مسائله، فقال في هذه المسألة:

1 ينظر: محيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه، 318/10.

2 السيوطي، همع الهوامع، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، 437/1.

"...﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيمًا﴾ [النساء: 96] سَمَّى نَفْسَهُ ذَلِكَ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ؛ أَيْ لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يُرِدْ شَيْئًا إِلَّا أَصَابَ بِهِ الَّذِي أَرَادَ، فَلاَ يَخْتَلِفْ عَلَيْكَ القُرْآنُ"[1].

ومما يُفيد كذلك في كِلا الوجهين المُشكِلَيْن ما ذكره أبو حيان من أن تقييد الفعل بزمنٍ معين، لا يدل على انتفائه عن غيره[2].

ومن بدائع الأجوبة ما ذكره الزَّجاج من قول الحسن في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ مُّقتَدِرًا﴾ [الكهف: 45]: "أي كان مقتدراً عليه قبل كونه"[3]، وقال عنه الزجَّاج: "وقول الحَسَنِ في هذا حسنٌ جميل"[4]، وذكر مثل ذلك ابن عثيمين رحمه الله في قوله تعالى: ﴿كَانَت لَّهُم جَنَّاتُ الفِردَوسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: 107]، حيث ذكر أن المراد بالكينونة هي الكينونة الماضية؛ لأنها كانت في علم الله نزلاً لهم، وأن الكينونة هنا تأتي أيضاً على وجه التحقيق بجعل "كان" مسلوبة الزمان[5].

وبعد إزالة الغشاوة والإشكال، يحسن إبراز الحُسن والجمال، فمما يبين شيئاً من النكت البلاغية لهذا الأسلوب ما ذكره الزمخشري في قوله تعالى: ﴿وَيَومَ نُسَيِّرُ الجِبَالَ وَتَرَى الأَرضَ بَارِزَةً وَحَشَرنَاهُم﴾ [الكهف: 47]، حيث قال: "فإن قلت: لم جيء بـ﴿وَحَشَرنَاهُم﴾ [الكهف: 47] ماضياً بعد ﴿نُسَيِّرُ﴾ و﴿تَرَى﴾؟ قلتُ: للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز، ليُعاينوا تلك الأهوال العظائم"[6].

وقال في ﴿وَجَاءَت سَكرَةُ المَوتِ بِالحَقِّ﴾ [ق: 19]: "ونبَّه على اقتراب ذلك بأن عبر عنه بلفظ الماضي"[7].

---

1 رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: تفسير سورة حم السجدة، 1815/4، برقم 4537.

2 ينظر: أبو حيان، البحر المحيط، تحقيق: صدقي محمد جميل، 531/6.

3 الزجَّاج، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، 291/3.

4 المصدر السابق.

5 ينظر: ابن عثيمين، تفسير سورة الكهف، ص١٤٨.

6 الزمخشري، الكشَّاف، 726/2.

7 الزمخشري، الكشَّاف، 385/4.

وقال في ﴿وَدُّواْ لَو تَكفُرُونَ﴾ [النساء: 89]: "الماضي وإن كان يجرى في باب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب، فإن فيه نكتة، كأنه قيل: وودّوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم، يعنى: أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعاً: من قتل الأنفس، وتمزيق الأعراض، وردّكم كفاراً، وردكم كفاراً أسبق المضارّ عندهم وأوّلها، لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم، لأنكم بذّالون لها دونه، والعدوّ أهم شيء عنده أن يقصد أعز شيء عند صاحبه"[1].

فبعد هذا يدرك القارئ الكريم أنَّه لولا استخدام الفعل الماضي في هذه الآيات لما وُقِفَ على هذه البلاغة التي تحمل من المعاني العميقة الشيء الكثير.

المبحث الثاني: ما يُتوهم منه التناقض

المطلب الأول: تعدد الصفات التي استُخدم معها اسم التفضيل (أظلم)

وقد جاءت في خمسة عشر موضعاً من القرآن الكريم، منها:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ [البقرة: 114].

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: 140].

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: 93].

فكلمة (أَظْلَم) على وزن (أَفْعَل) تدلَّ على التفضيل، "و(مَنْ) اسم استفهام معناه النفي والتوبيخ؛ أي: لا أحد أظلم"[2]، فكل آيةٍ جاءت فيها تقتضي ألا يكون أحدٌ أظلم من المذكور فيها، وقد جاءت في أكثر من موضع بأوصافٍ مختلفة كما مرَّ معنا في الآيات، مما قد يتوهم منه التناقض.

وحاصل الأجوبة في الجمع بينها[3]:

---

1 المصدر السابق، 4/513.

2 ينظر: محيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه، 3/83.

3 تنظر هذه الأوجه التي ذكرتها في: السوطي، معترك الأقران، 1/80.

أولاً: أن كل موضعٍ مختصٌّ بصلته، أي لا أحد من المانعين أظلم ممن منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه، ولا أحد من الكاتمين أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله، وهكذا.

وإلى هذا الوجه ذهب ابن عثيمين رحمه الله، فقال في معنى آية ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [البقرة: 114]: "أي لا أحد أظلم منعاً ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وفي الكذب، أي الكذب أظلم؟ الكذب على الله، فتكون الأظلميَّة هنا بالنسبة للمعنى الذي سيقت فيه ليست أظلمية مطلقة"[1].

ثانياً: أن ذلك مختص بمن سَبَق، فهو أظلم ممن جاء بعده سالكاً طريقه.

وهذا الوجه دلَّت عليه نصوص كثيرة، منها ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا، إِلَّا كانَ علَى ابْنِ آدَمَ الأوَّلِ كِفْلٌ مِن دَمِها، لأنَّهُ كانَ أوَّلَ مَن سَنَّ القَتْلَ)[2]، إلا أنَّ السيوطي أرجع هذا الوجه للذي قبله، وعلَّل ذلك بأنَّ المرادَ السبقُ إلى المانعيَّة والافترائيَّة، وهو كذلك.

ثالثاً: نفي الأظلميَّة لا يستلزم نفي الظالميَّة، بعبارة أخرى: لا يلزم من نفي التفضيل نفي المساواة.

وزعم أبو حيان أن هذا الوجه هو الصواب، إلا أن ابن عثيمين لم يوافق على هذا المعنى الأخير؛ لأنه "لا يمكن أن تقرن بين من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وبين من افترى على الله كذباً، فإن الثاني أعظم، فلا يمكن أن يشتركا في الأظلميَّة"[3]، إلا أن السمين الحلبي قد أجاب عن هذا الإشكال بقوله: "لا يُقال: إنَّ من منع مساجد الله وسعى في خرابها ولم يفترِ على الله كذباً أقل ظلماً ممن جمع بين هذه الأشياء، فلا يكونون متساوين في الأظلميَّة؛ لأن هذه الآيات كلها في الكفار، وهم متساوون في

1 ابن عثيمين، تفسير سورة الكهف، ص29.

2 رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، 3/1213، برقم 3157.

3 ابن عثيمين، تفسير سورة الكهف، ص29.

الأظلميَّة وإن كان طرق الأظلميَّة مختلفة"[1]، وأرى أن كلامه فيه نظر، فإن زعم تساويهم في الأظلميَّة يستلزم تساويهم في العقاب، ولا أظن أحداً يقول بذلك.

رابعاً: أنَّه استفهامٌ يُقصد به التهويل، من غير قصد إثبات الأظلميَّة للمذكور حقيقةً أو نفيها عن غيره، وهذا الوجه الأخير عزاه السيوطي إلى بعض المتأخرين.

فهذه الوجوه كلُّها تردُّ التناقض المتوهَّم عن هذه الآيات، ولكن أقواها الوجه الأول والرابع، والله أعلم.

وإذا نظرنا إلى بعض هذه الآيات على انفراد أيضاً تستشكل من نواحٍ أخرى، وبالإجابة على هذه الاستشكالات يبرز الجانب البلاغي الجميل لها، فنذكر مثالين على ذلك أجاب عنهما شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

الأول: كيف يُقرن من كَذَبَ على الله بمن كَذَّبَ الصادق فيما جاء به في قوله تعالى: ﴿فَمَن أَظلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدقِ إِذ جَاءَهُ﴾ [الزمر: 32]؟ بيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية أن تكذيب الصادق هو من الكذب، فلذلك قرنه سبحانه بالذي يكذب عليه، "فكلاهما كاذِبٌ؛ هذا كاذبٌ فيما يُخبر به عن الله، وهذا كاذبٌ فيما يُخبر به عن المُخبر عن الله"[2].

الثاني: ذَكَرَ سبحانه مَنْ جَمَعَ بين التكذيب بآيات الله والإعراض عنها بقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: 157]، ولكنه سبحانه عند ذكر الجزاء ذكر المعرضين مطلقاً -سواء كان مكذباً أو لم يكن-، فقال: ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: 157]، فما السرُّ في ذلك؟ ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنَّ "كل من لم يُقِرَّ بما جاء به الرسول فهو كافر، سواءً اعتقد كذبه، أو استكبر عن الإيمان به، أو أعرض عنه اتباعا لما يهواه، أو ارتاب فيما جاء به؛ فكل مكذب بما جاء به فهو كافر، وقد يكون كافراً مَنْ لا يُكذبه

1 السمين الحلبي، الدر المصون، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، 77/2.

2 ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، تحقيق: محمد رشاد سالم، 192/7.

إذا لم يؤمن به"[1]، فلذلك توعَّد سبحانه الذين يصدفون عن آياته مطلقاً بدون ذكر تفصيلٍ لتكذيبهم من عدمه.

المطلب الثاني: مجيء آيات تضمنت ذكر ربوبية الله للمشرق والمغرب تارة بالإفراد وتارة بالتثنية وتارة بالجمع

نجد في القرآن الكريم أن الله سبحانه يقول: ﴿رَبُّ المَشرِقِ وَالمَغرِبِ﴾ [المزمل: ٩] بالإفراد، وآية أخرى بالتثنية: ﴿رَبُّ المَشرِقَينِ وَرَبُّ المَغرِبَينِ﴾ [الرحمن: ١٧]، وآية ثالثة بالجمع: ﴿فَلَا أُقسِمُ بِرَبِّ المَشَارِقِ وَالمَغَارِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، فهل هو مشرق ومغرب، أم مشرقين ومغربين، أم مشارق ومغارب؟ وكيف يكون هناك أكثر من مشرق ومغرب؟ وقد استغل الزنادقة هذه الشبهة ليشبِّهوا بها على المسلمين، كما قال الإمام أحمد بعد إجابته على هذه الشبهة: "فهذا ما شكَّت فيه الزنادقة"[2].

الجواب: أولاً وقبل كل شيء يجب أن نعلم أنه لا يمكن أن يكون في القرآن تعارض، قال تعالى: ﴿وَلَو كَانَ مِن عِندِ غَيرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اختِلَافاً كَثِيراً﴾ [النساء: 82]، فإذا رأينا فيه ما يوهم التعارض؛ فلا ينبغي أن نُسيء الظن بالقرآن، بل نتهم أفهامنا بالقصور، ثم نتدبر حتى يلوح لنا الجمع الصحيح بينها ونتيقن عدم وجود التعارض[3].

وبعد هذه المقدمة الموجزة نشرع في الرد المفصَّل على هذه الشبهة؛ هذه الآيات الثلاث التي ظاهرها التعارض جمع بينها الشيخ ابن عثيمين رحمه الله بحمل المقصود بصيغة الإفراد على الجهتين المعروفتين، وحمل المراد بالمشرقين والمغربين على مشرقي ومغربي الصيف والشتاء عموماً، وأما المراد من صيغة الجمع فجعلها لمشرق ومغرب الشمس في كل يوم من أيام السنة؛ فإن لكل يوم مشرقاً ومغرباً مختلفاً عن الأيام الأخرى[4].

1 ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، 315/3.

2 أحمد بن حنبل، الرد على الجهمية والزنادقة، تحقيق: صبري بن سلامة شاهين، ص69.

3 ينظر: ابن عثيمين، تفسير سورة السجدة، ص٥٩.

4 ينظر: ابن عثيمين، تفسير سورة الزخرف، ص١٥٣.

وجَمْعُ الشيخ بين هذه الآيات يعتبر موافقاً لجمع البغوي وابن رجب من قبله، إلا أنَّ ابن رجب جعل صيغة الإفراد باعتبار الجنس، وذكر نحواً من هذه الأقوال ابن جزيّ في تفسيره[1]، وذكر العلامة ابن عثيمين رحمه الله أيضاً قولاً آخر في الجمع؛ وهو أن المراد به مشارق النجوم والكواكب والشمس والقمر؛ لأن لكل منهم مشرق[2].

وأما البغوي فذكر قولاً آخر في المراد من صيغة الجمع، وهو أنه: "كل موضع شرقت عليه الشمس فهو مشرق، وكل موضع غربت عليه الشمس فهو مغرب، كأنه أراد: رب جميع ما أشرقت عليه الشمس وغربت"[3]، وهذا قولٌ حسن، فمن تأمل الآيات الثلاث السابقة وجدها مصدَّرة بذكر الربوبية، وهذا المعنى مناسب في تقرير ربوبية الله على العالمين.

وفي الآونة الأخيرة ظهر مهندس اشتهر على الفضائيات يُفسر آيات من القرآن بأسلوب يحمل الصبغة العلمية الحديثة، واسمه علي بن منصور الكيالي، وقد قال في صفحته على الفيسبوك عن آية سورة الرحمن وآية سورة المعارج: "...وقد أوضح القُرآن الكريم ذلك بشكلٍ مُذْهل، فتحدَّث عن مداري [السرطان + الجدي] اللذان لا تتجاوزهُما الشمس، فقال تعالى: ﴿رَبُّ المَشرِقَينِ وَرَبُّ المَغرِبَينِ﴾ [الرحمن: ١٧]، وتحدَّث عن [مشارق] يومية متعدّدة للشمس بين هذين المدارين، فقال تعالى: ﴿فَلَا أُقسِمُ بِرَبِّ المَشَارِقِ وَالمَغَارِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]"[4]، ففسَّرها بأسلوب علمي حديث، وفي الجهة المقابلة نجد الإمام أحمد رحمه الله يفسرها بقوله: "وأما قوله: ﴿رَبُّ المَشرِقَينِ وَرَبُّ المَغرِبَينِ﴾ [الرحمن: ١٧] فهذا أطول يوم في السنة، وأقصر يوم في

1 ينظر: ابن جزيّ، التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق: د. عبد الله الخالدي، 2/188.

2 ينظر: ابن عثيمين، تفسير سورة الزخرف، ص١٥٣.

3 البغوي، معالم التنزيل، 7/34.

4 من صفحة م. علي الكيالي على الفيسبوك:
https://m.facebook.com/DrAliKayali/posts/917659434978095، تمت الزيارة بتاريخ: 16 سبتمبر 2022.

السنة، أقسم الله بمشرقها ومغربها، وأما قوله: ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [المعارج: 40] فهو مشارق السَّنة ومغاربها"[1].

فإذا ما جئنا لنقارن بين التفسيرين، فقد يبدو لنا من أول وهلة أن المهندس علي الكيالي قد أتى بتفسير جديد لم يُسبق إليه، وأن تفسير الإمام أحمد تفسيرٌ بسيط، لكن عند التحليل يتبين لنا التالي:

فسَّر الإمام أحمد رحمه الله المشرقين والمغربين بأطول وأقصر يوم في السنة، فمتى يكون هذا؟ أطول يوم في السنة يكون في فصل الصيف حين تتعامد أشعة الشمس مع مدار السرطان، وأقصر يوم يكون في فصل الشتاء وذلك حين تتعامد أشعة الشمس مع مدار الجدي، وهو ما صاغه الكيالي بشكل علمي يوحي بأنه لم يُسبق إليه، وكذلك الأمر بالنسبة لصيغة الجمع؛ فالمشارق اليومية التي ذكرها الكيالي هي نفسها مشارق السنة التي ذكرها الإمام أحمد رحمه الله، فتبين أن الكيالي مع كل ما جاء به من بهرجة علمية لم يأتِ بجديد، فهذا القول هو نفس قول الإمام أحمد رحمه الله، ولكنه مزخرف بصبغة علمية، وهذا يدلنا على أن العلماء السابقين فهموا القرآن الكريم فهماً دقيقاً، وقد كانت عباراتهم في التفسير أبعد عن التكلُّف وأوضح، فينبغي ألا يُغتر بأسلوب المحدَثين "العلمي" فيُرى أنهم أكثر علماً من السابقين.

ملخص الجواب: تدور أقوال المفسرين في بيان المراد من هذه الآيات على شروق الشمس وغروبها في الفصول المختلفة، ويتبع ذلك طول اليوم وقصره، وقد يضمون معها مشارق ومغارب القمر والكواكب، ومع تعدد الأقوال فيها إلا أنها متقاربة.

وفي آخر هذا المطلب نتعرَّض لشيء من بدائع الإمام ابن القيم رحمه الله في ذكر وجه اختصاص كل موضع من هذه المواضع بالصيغة التي جاء فيها، قال رحمه الله: "وأما وَجْه اختصاص كلِّ موضع بما وقع فيه؛ فلم أرَ أحداً تعرض له ولا فتح بابه، وهو بحمد الله بَيِّنٌ من السياق"[2]، ثم ذكر نكتة التثنية في سورة الرحمن، والإفراد في

1 أحمد بن حنبل، الرد على الجهمية والزنادقة، ص69.

2 ابن القيم، بدائع الفوائد، تحقيق: علي بن محمد العمران، 212/1.

سورة المزمل، والجمع في سورة المعارج، والجمع في سورة الصافات مع الاقتصار على ذكر المشارق دون المغارب.

فذكر أن سورة الرحمن مساقها في المثاني المزدوجات، حيث ذُكر فيها نوعَي الإيجاد، وسِراجَي العالم، ونوعَي النبات... إلخ، فناسب فيها التثنية دون الإفراد والجمع حيث قال سبحانه: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: 17].

وأما سورة المزمل فقد تقدَّم فيها ذكر الليل والنهار، حيث أُمر النبي صلى الله عليه وسلم بقيام الليل، وأُخبر أن له في النهار سبحاً طويلاً، والمشرق والمغرب مظهر النهار والليل؛ فالنهار يظهر من المشرق، والليل يظهر من المغرب، فناسب فيها الإفراد دون التثنية والجمع حيث قال سبحانه: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: 9].

وأما سورة المعارج فناسب الجمع ما جاء من ذكر قدرته سبحانه على أن يبدل خيراً منهم، فالقادر على نقل الشمس العظيمة وتصريفها كل يوم في مشرق ومغرب، لا يعجزه أن يبدلهم وينقل إلى أمكنتهم من هو خيرٌ منهم، وأيضاً بالنظر إلى تأثير الشمس بمشارقها ومغاربها في تبدُّل حال النبات والحيوان وانتقالها من حال إلى آخر، فالقادر على ذلك كيف لا يقدر على أن يبدل خيراً منهم؟! فناسب فيها الجمع دون الإفراد والتثنية حيث قال سبحانه: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ [المعارج: 40].

وأما سورة الصافات فلمجيئها مع جملة المربوبات المتعدِّدة، حيث قال سبحانه: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ [الصافات: 5]، فانتظم الجمع فيها مع تعدد المربوبات المذكورة، وأما اقتصارها على ذكر المشارق دون المغارب؛ فلأن المشارق تتضمن الإنشاء، حيث إنها مظهر الأنوار، وبها حياة الحيوان وتصرفه ومعاشه، فناسب هذا الإنشاء المشهود أن يتقدم الرد على منكري البعث[1].

1 ينظر: ابن القيم، بدائع الفوائد، 212/1.

الخاتمة:

وفي ختام هذا البحث، نعرض أبرز النتائج:

1. كل ضمائر الجمع المنسوبة إلى الله تعالى المراد بها التعظيم.

2. لا يوجد موطن في القرآن الكريم ذُكر فيه ضمير العظمة إلا وجاء قبله أو بعده ما يدل على وحدانية الله سبحانه.

3. (كان) قد تأتي مسلوبة الزمان فتفيد التحقيق، وقد يقدَّر المعنى بأن الله سبحانه كان عليماً بالأمر قبل كونه، مقتدراً عليه قبل كونه، وهكذا.

4. القصور في فهم العوام يمكن إرجاعه إلى قلة إدراكهم لتنوع الدلالات للمفردة الواحدة، مثل إتيان (كان) في القرآن الكريم على خمسة أوجه وانصراف أذهانهم لوجه واحدٍ منها فقط.

5. مجيء الفعل الماضي بدلاً من المضارع في مواضعَ من القرآن الكريم له دلالة على معانٍ بلاغية عميقة تُدرك بالسِّياق.

6. أسلوب التفضيل في (ومن أظلم) الذي تكرر لأصنافٍ مختلفة قد يُجاب عليه بعدة بأجوبة، أقواها: أن تكون الأظلميَّة نسبيَّة؛ فكل موضعٍ مختصٌّ بصِلَتِه، أو أن يكون للتهويل.

7. كلٌّ آية من الآيات التي تضمنت ذكر ربوبية الله للمشرق والمغرب تارة بالإفراد وتارة بالتثنية وتارة بالجمع لا تنافي بينها، وكل واحدةٍ منهنَّ لها وَجْه اختصاص بالموضع التي جاءت فيه.

8. فهم العلماء السابقون القرآن الكريم فهماً دقيقاً، ولم يفُقْهُم المعاصرون مع ما يظهرونه من أسلوب علمي حديث يوهم إتيانهم بالجديد فيه، كما فعل المهندس علي الكيَّالي.

التوصيات:

1. تشجيع الباحثين ليقدموا بحوثاً -على غرار هذا البحث المتواضع- تُبرز الشُّبَه القريبة من العوام، كلٌّ بحسب مجتمعه وبيئته.

2. الارتقاء في نوعية التعليم بالمدارس بإدراج دروس في الأساليب البلاغية في القرآن الكريم في مادة التربية الإسلامية.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.

المراجع

1. أحمد ابن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، الرد على الجهمية والزنادقة، تحقيق: صبري بن سلامة شاهين، دار الثبات للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى.

2. البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الخامسة، 1414هـ.

3. البغوي: أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخران، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، 1417هـ.

4. ابن تيمية: أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، العقيدة التدمرية، تحقيق: د. محمد بن عودة، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة السادسة، 1421هـ.

5. ابن تيمية: أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، مجموع الفتاوى، جمع: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1416هـ.

6. ابن تيمية: أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، منهاج السنة النبوية، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، 1406هـ.

7. ابن جزيّ: أبو القاسم محمد بن أحمد، التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق: د. عبد الله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى، 1416هـ.

8. أبو حيان: محمد بن يوسف بن علي، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ.

9. درويش: محيي الدين بن أحمد مصطفى، إعراب القرآن وبيانه، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الرابعة، 1415هـ.

10. الرازي: محمد بن عمر، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1420هـ.

11. الزجَّاج: إبراهيم بن السري بن سهل، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، 1408هـ.

12. الزمخشري: محمود بن عمرو بن أحمد، الكشَّاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1407هـ.

13. السامرائي: د. فاضل بن صالح، على طريق التفسير البياني، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، 1438هـ.

14. السامرائي: د. فاضل بن صالح، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، دار عمار للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الثالثة، 1423هـ.

15. السمين الحلبي: أحمد بن يوسف بن عبد الدائم، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.

16. السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، معترك الأقران في إعجاز القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1408هـ.

17. السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية، مصر.

18. الشنقيطي: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني، العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، تحقيق: خالد بن عثمان السبت، دار عطاءات العلم، الرياض، الطبعة الخامسة، 1441هـ.

19. الشوكاني: محمد بن علي، فتح القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدراية في التفسير، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، 1414هـ.

20. الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل القرآن، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، 1422هـ.

21. ابن عثيمين: محمد بن صالح، تفسير سورة الفاتحة، مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، الطبعة الثانية.

22. ابن عثيمين: محمد بن صالح، تفسير سورة الكهف، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1423هـ.

23. ابن عثيمين: محمد بن صالح، تفسير سورة لقمان، مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية – الطبعة الأولى، 1436هـ.

24. ابن عثيمين: محمد بن صالح، تفسير القرآن الكريم (سورة الزخرف)، مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، الطبعة الأولى، 1436هـ.
25. ابن عثيمين: محمد بن صالح، تفسير القرآن الكريم (سورة السجدة)، مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، الطبعة الأولى، 1436هـ.
26. ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.
27. القرطبي: محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1384هـ.
28. ابن القيم: محمد بن أبي بكر، بدائع الفوائد، تحقيق: علي بن محمد العمران، دار عطاءات العلم، الرياض، الطبعة الخامسة، 1440هـ.
29. ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1419هـ.
30. مقاتل: أبو الحسن مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى، 1423هـ.
31. ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، 1414هـ.
32. الواحدي: أبو الحسن علي بن أحمد، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1415هـ.

المراجع الإلكترونية:

موقع إسلام ويب: www.islamweb.net
صفحة م. علي الكيالي على الفيسبوك:
https://m.facebook.com/DrAliKayali/posts/917659434978095